المحاضرة 1 –مدخل إلى النقد العربي الحديث (إرهاصات)

حياة الأدب والنقد جزء من حياة الثقافة وهي بدورها بعد من أبعاد حياة المجتمع بشكل عام، ولذلك لا تنفصل ظروفها عن ظروفه تأثرا وتأثيرا. وكل ما أصاب المجتمع العربي من تغيرات كانت الثقافة في الصميم منه لأنها تمثل عقل الأمة ووجدانها. والعامل السياسي هو أهم فاعل مؤثر في مصائر الناس عامة، فإذا طالعنا تاريخ العرب وجدناه بالفعل قد رسم مصيرها الاجتماعي والثقافي. ولذلك ليس غريبا أن نقسم عهود التغيرات الثقافية ومن ثم الأدبية والنقدية وفق العامل السياسي حصرا، فالعهود السياسية الأموية والعباسية والمملوكية والعثمانية هي بالذات مراحل أدبية نقدية لها خصائص ومميزات متداخلة تداخل الحياة نفسها. ولا تكاد صورة للانفصال بينهما أن تثبت للمؤرخ أو الناقد: فعصور الازدهار الأدبي والنقدي أموية وعباسية وعصور التراجع والانحطاط مملوكية وعثمانية وعصر الإحياء هو عصر محمد علي ومملكته وعصر النهضة هو ما بعد الحرب العالمية الأولى، بما يرسم مشهدا تترابط فيه عوامل السياسة والفكر.

ولأن الحديث يدور حول نشأة النقد العربي الحديث فلا مناص من ذكر الظروف التي أحاطت بالحياة الثقافية وأدت إلى انبثاق هذه المرحلة من النقد من رحم القديم. وهي علاقة توالد بكل ما تعنيه من تواصل دقيق خفي أو كبير جلي، لأنه لا يمكن تصور قطيعة بين مراحل الحياة الأدبية والنقدية مهما حاول دعاتها إثبات ذلك، ومع هذا فإن النقلة الجديدة لم تكن سطحية بل كانت زلزالا هز كيان الأمة جميعا أمام صدمة الغزو العسكري والسياسي والثقافي. صحيح أن الموروث الأدبي والنقدي عند العرب كان من القوة والمتانة والتمكن إلى الحد الذي جعله يعيش بيننا حتى الآن، لكن النظرة تبدلت والرؤية اختلفت كليا.

تنقسم فترة التحول الحساسة هذه إلى مرحلتين مع اختلاف بين الدارسين: فترة الإحياء وفترة التجديد، وأضيف بشيء من الموضوعية فترة قبلية أسميها فترة البلبلة والحيرة: وهي الفترة التي لامست مباشرة وجود المحتل على أرض العرب في صورة الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، إنها فترة الصدمة والذهول

والحيرة أمام انكشاف الواقع والحقيقة. يمكننا هنا أن نفرق بين الموقف العسكري والموقف الثقافي: فالأول عكسته المقاومة الشرسة للمحتل ومحاولة دفعه مهما كانت الفروق جسيمة في الوسائل والإمكانيات، أما الثاني فهو ديدن العقل بعيدا عن ضوضاء المعارك، وقد أدرك عمق الفجوة بين الغزاة المدججين بوسائل الحياة العصرية والأهالي المكبلين بكل أسباب التخلف والضعف ولابد من طرح أسئلة وتقديم أجوبة وبناء عليها تبدو ملامح الغد.

فمرحلة الإحياء في حياة العرب النقدية ليست إلا أحد الأجوبة وربما العاجلة لمواجهة الغزو في شقه الثقافي، ويكون التجديد أو ما يسمى بالنهضة جوابا آخر جاء لاستكمال الجواب الأول أو تعويضه حيث لم يف بالمراد او لم يعبر عن حقيقة المطالب.

الظروف المحيطة بمرحلة الإحياء وعواملها: كانت حالة البلاد العربية أواخر ق18 وبداية ق19 "غاية في الفساد والاضمحلال حكما وأخلاقا ولغة وأدبا" (الوسيط ص265)، وهي الحالة التي أغرت أوروبا باستغلالها وتحقيق مطامعها التاريخية وتجدد غاراتها عليها وإن بشكل مغاير لما كانت عليه حروبها القديمة تحت رايات الصليب والتي ساء ذكرها وخاب مسعاها. فالغاية الجديدة المعلنة هي نشر العلوم والآداب والمدنية. فكانت حملة نابليون على مصر وما أعقبها من انتشار ثقافي في بلاد العرب في الشرق خاصة وإن كان الوجود الأوروبي فيها قد سبق الحملة من خلال البعثات التبشيرية بوقت طويل (نفسه).

ثم ما لبثت حملة نابليون أن تنحسر وتترك البلاد في فوضى عارمة لولا أن جنديا عثمانيا طموحا استولى على مقاليدها بدهائه، وجعل أساس حكمه متابعة الأوروبيين في إدارة البلاد وتعليم الناس وتنظيم الجيش متأثرا بما رآه من آثار الفرنسيين وما شاهده وهو قائد عسكري من تفوقهم أثناء حروبه مع الترك والانجليز.

حالة تعليم اللغة والأدب: إذا قورن التعليم الديني الذي حرص الأزهر على ديمومته وإشعاعه رغم ما لحق به من علل، فإن حالة الأدب واللغة كانت أعسر وأدهى، لأن ملكة التحصيل في علوم الدين قد تتحقق لطلابها ولو عن طريق الحفظ والاستظهار واستيعاب المناقشة التي تتاح عبر الشرح والتعليق، أما

ملكة الإنشاء والأدب فلا تفيد فيها طرق الحفظ والاستظهار لأن مدار الأمر فيها على التمرين في التعبير والتذوق والفهم. والأخطر أن مادة الأدب تؤخذ في منظومات المتأخرين ومقاماتهم، حيث يبتعد الأدب عن ميدان التعبير إلى ميدان التصنع. وقصارى الأديب أن يحفظ الألغاز والمقامات والطرائف الأدبية وهو بعد ليس مدعوا للتعبير عما يجده أو يحسه، وإنما هو مدعو لاستظهار أكثر ما يمكن من الفرائد الأدبية والأمثال السائرة والأبيات المفردة والأخبار. فهو أديب لأنه يستطيع أن ينادم الأمراء وسراة القوم بطرائفه ونكاته الأدبية، فإذا دعي إلى الكتابة نسج من أسجاع المتقدمين ومزاوجاتهم وأصباغهم البديعية رقعا للتعزية أو التهنئة أو الثناء حيث لا شعور لديه بتعزية أو بتهنئة أو بثناء وإنما هو الوصف والتقليد. وهو ليس شاعرا لأنه يستطيع أن يعبر عن مشاعره وخلجات نفسه، بل هو ناظم لأنه يستطيع أن يتصرف فيما حفظه من فنون التلاعب بالقوافي والأعاريض وحشوها بالتواريخ والأحاجي. كتاب الصراع ص 183

جهود محمد علي الإصلاحية: استعان محمد علي بفرنسا خاصة وممالك أوروبا عامة لتحقيق رؤيته فتم له ذلك، لكن استعصاء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية منعه من الاستفادة من العنصر الأوروبي ومن اختارهم من الألبان والترك لإحكام قبضته على حكم البلاد والانفراد بها، فانتهج نظام البعثات بعد انتخاب الأفراد من الجاليات التركية والألبانية ومن المصريين ليكونوا الواسطة بين الشعب والأوروبيين في نقل المعارف، فأرسل ثلاث بعثات علمية إلى أوروبا في أزمنة مختلفة مكنته من إيجاد نخبة متعلمة في شتى الفنون من علماء وأطباء ومهندسين وضباط. استطاع هؤلاء أن ينقلوا إلى العربية عشرات الكتب محدثا فيها تغيرا كبيرا "باكتساب سعة في الأغراض والمعاني والألفاظ العلمية والأساليب الجديدة وطرق البرهنة والاستدلال". (نفسه 268)

وقد ساعده الأزهر في تأطير البعثات العلمية وتدريس علوم العربية في المدارس التي أنشأها "ورأى العلماء والأدباء أنه صارت لهم دولة منظمة تقبل منهم كل ما يحسنونه نتيجة كدهم وثمرة فكرهم فالتفوا حولها وصاروا كتابا لها وشعراء في جريدتها الوقائع أول جريدة عربية" (نفسه 268).

وتأثر بهذا التحول أهل الشام، وصادف ذلك نفوذ منتشر للمبشرين من الأمريكان وغيرهم فقدموا على مصر وانتظموا في أسلاك الحكومة ومدارسها، ودخل نصاراهم مدارس المبشرين الذين كان أكثرهم من المستعربين العارفين باللغة العربية، فدرسوا العلوم وألفوا باللسان العربي ونبغ منهم كثيرون كانوا قادة فكر وسياسة في سوريا، كما نبغوا في الشعر والكتابة وترجمة الروايات الأدبية واتخذوا ذلك صناعة لهم يتكسبون بها في مصر والشام مما ساعد على ازدياد الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر والإرادة. نفسه 268

لكن هذه الدينامية سرعان ما خبت بعد محمد علي، تحت حكم عباس باشا وسعيد باشا ثم ما لبثت أن استعادت حيويتها في عصر إسماعيل باشا الذي استأنف إرسال البعثات وبناء مؤسسات التعليم.

مرحلة الإحياء: 1- العوامل المساعدة:

-اتصال الشرق بالغرب بداية من حملة نابليون وانتشار البعثات التبشيرية التي وظفت اللغة العربية.

-ازدياد عدد المستعربين بأوروبا والشرق وسعيهم إلى إيجاد المطابع العربية وطبعهم لنفائس العربية وعنايتهم بتنقيحها.

-إيجاد المدارس المتعددة التي خدمت العربية وآدابها ومن أهمها "دار العلوم" التي أنشئت باقتراح من علي مبارك وتخرج منها مئات من المعلمين والقضاة وكتاب الدواوين وعلى أيديهم تخرج تقريبا كل أدباء النهضة ومفكروها وشراؤها حتى قال فيها محمد عبده: "إن باحثا مدققا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان ووجدها تحيا في هذا المكان" 269

-البعثات العلمية إلى أوربا

-شيوع تعلم اللغات الأجنبية مما أثرى العربية وشجع الترجمة وجعل التواصل الثقافي ميسورا. 270

-إيجاد المطابع العربية بمصر والشام والقسطنطينية والعراق والهند وتونس وطبعها للمصحف الشريف وكتب العلوم والأدب.

-إنشاء الصحف والمجلات العربية ومنها الوقائع في 1828 وكان أول أعدادها بالتركية ثم مناصفة مع العربية ثم استقلت بالعربية وصدرت نسخ منها بالفرنسية ومن محرريها: الشيخ العطار والشيخ شهاب والشيخ رفاعة والشيخ عبده وغيرهم 270

-تنظيم التقاضي والترافع بفصاحة اللسان وقوة الحجة مما أنشأ لغة قانونية قوية وسليمة أثرت العربية وحفزت على الإجادة فيها.

-إحداث الأندية والجمعيات العلمية والأدبية وكذلك الصالونات الأدبية وقد كان لجمال الدين الأفغاني فضل المبادرة بها.

-حدوث فن التمثيل وظهر بالشام أولا ثم في مصر، لكنه بقي ضعيفا حتى تكونت مدارس فنية مختصة انتقت تلاميذها ومدرسيها.

-استحداث الشهادات الدراسية واعتبار الحصول عليها شرطا للتوظيف الحكومي واحتراف التخصصات كالطب والهندسة والمحاماة.

-تنظيم التعليم بالأزهر والمعاهد الدينية وإدخال الكثير من العلوم الحديثة في مواد الدراسة وللشيخ محمد عبده دور كبير في هذا المجال.

إحياء التراث العربي: كانت صدمة التقاء الشرق بالغرب تحت حراب حملة نابليون وبعدها الاحتلال الإنجليزي وقبلهما هيمنة العثمانيين (سياسيا وثقافيا) حافزا لمثقفي ذلك العصر للعودة إلى الماضي الثقافي العربي الإسلامي. وهو رجوع يترجم حالة اللاتوازن بعد الهزة العنيفة التي أحدثتها صورة الغربيين في ثقافتهم وممارساتهم، مما جعل هؤلاء المثقفين الرواد يبحثون عما يواجهون به هذا الغزو الناعم لإثبات "الذات العربية" من خلال استدعاء التراث الأدبي للاعتزاز به كرصيد فكري والانطلاق من أصوله لتأكيد الاستمرار التاريخي. الصراع ص 233

وقد كان الوعي الديني هو المؤطر لهذا التوجه لأن خلاصته هي كون التخلف والدونية قياسا إلى الغربيين مرده "إلى الابتعاد عن الماضي والانسلاخ من روحه فليس من الصدفة إذن أن يجد الماضي طريقه إلى قلوبنا وعقولنا باعتباره عنصرا يغذي كبرياءنا وعزتنا ويمدنا بإرادة الثبات والاستمرار" 233 ويمثل الشيخ محمد عبده نموذجا لهذا التوجه في بعث التراث، لأن الإصلاح يتطلب أمرين: إصلاح الفهم وإصلاح اللسان والعربية، يقول الشيخ: "وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين، الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف...وأما الأمر الثاني فهو إصلاح اللغة العربية في التحرير" الصراع ص233

وقد وجدت هذه الصيحة صداها لدى الدارسين الذين انكبوا على "دواوين الشعراء العباسيين والأمويين والجاهليين ورسائل البلغاء وخطب الخطباء ورسائل الجاحظ والتوحيدي والهمذاني وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع" ص235، وقد ساعد على هذا التوجه ما قام به المستشرقون في تحقيق التراث ونشره بأناة وصبر بالغين حتى إن المستشرق فلوجل (Flugel) قضى خمسا وعشرين سنة في جمع مخطوطات كتاب الفهرست لابن النديم ولم يتمها. بمثل هذا التفاني عادت إلى الحياة آثار هامة من التراث العربي مثل تاريخ الطبري ومعجم الأدباء وفتوح البلدان والكامل للمبرد ورسائل بديع الزمان ونهاية الإقدام في علم الكلام وديوان ذي الرمة والفصل في الملل والأهواء والنحل وديوان ابن عربي والمفضليات وديوان الحطيئة وسواها من الآثار، "وكانت جميعها تعمق الشعور لدى الباحثين والأدباء بضرورة المزيد من الاطلاع على التراث القديم والتأثر به في سماحة الأسلوب وطلاقته وثراء المعاني". ص 236

وانتقل هذا العمل من أيدي الأفراد إلى الجمعيات مثل جمعية المعارف التي تأست في 1868 وكانت الأولى في نشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر، ثم ظهرت هيئة برئاسة الشيخ محمد عبده في 1900 لإحياء الكتب القديمة النافعة، وبعد ح ع أ ظهرت في مصر لجنة للتأليف والترجمة أخرجت منذ تأسيسها حتى 1948 ثلاثمئة كتاب. ص 236

وقد واكبت حركة الإحياء والنشر جهود دراسية قامت بعرضها وتحليلها ونشرت أبحاثها في المجلات الأدبية والصحف، ثم انكبت الجامعات بعد تأسيسها على إعطاء نصيب وافر من جهدها لدراسة التراث، ونتيجة هذا الجهد هو ظهور جيل من الكتاب استقى من الجاحظ والتوحيدي وشعراء أخذوا عن المتنبي والمعري فعادت لأساليب الشعر والنثر قوتها وأخذت تتخلص من وهن اللغة وآثار التصنع. ص 237

وقد كان من رواد الإحياء لبنانيون جمعوا بين الثقافتين العربية والغربية وأحسوا بخطورة دورهم فكانوا طلائع لإحياء التراث الأدبي واللغوي والتاريخي منهم: ناصيف اليازجي الذي أحيا الأسلوب العربي الرصين شكلا واعتنى بإحياء العلوم اللسانية موضوعا ليقربها من متناول المتعلمين، كما اعتنى بطرس البستاني بالنحو والصرف وأحمد فارس الشدياق بأسرار اللغة ودقائق التعبير مقتديا بابن جني معتبرا العربية "أفضل اللغات عن يقين لا عن تخمين". 238 وكذلك فعل إسكندر آغا ابكاريوس في التاريخ وهو يؤلف "كتاب نهاية الإرب في أخبار العرب" وفي الشعر من خلال مجموعة سماها "روضة الأدب وطبقات شعراء العرب"، وعلى دربهم سار لويس شيخو وإبراهيم الأحدب وإبراهيم اليازجي وخليل اليازجي.

أما في مصر فقد سبقت الإشارة إلى دور محمد عبده وجماعة من تلاميذه مثل أحمد زكي الذي كان مثلا في جهود إحياء التراث، والأمير شكيب أرسلان الذي اعتنى بابن المقفع وقال مبينا رسالته: "وكذلك كان أسنى ما تخدم به هذه اللغة الشريفة لهذا العهد إثارة دفائن كنوزها ونفض كنائن رموزها واستخراج جواهرها". 239

ومع هذا الإحياء توجه الرواد إلى تدشين حركة تعليمية تنهض بها مؤسسات التعليم الابتدائية والعليا لربط التراث بعقول الدارسين فتحيي فيهم الصلة بتراثهم الأدبي وتجعلهم يقبلون عليه ويستوحونه غذاء لعقولهم ووسيلة لعبارتهم. 239 فأضافوا إلى دورهم التأليفي دورا تعليميا فكانوا أساتذة ومدرسين في المؤسسات التي أنشأوها لتقريب علوم اللغة وآدابها من متناول تلاميذهم وطلابهم. 240

إحياء التعليم الأدبي: ظهرت في هذه المرحلة المبكرة الكتب التالية: الوسيلة الأدبية للمرصفي (1869)، كشف الإرب عن سر الأدب لإبراهيم الأحدب (1873)، والشهاب الثاقب في صناعة الكاتب للشرتوني (1884)، وعلم الأدب للويس شيخو (1885)، وتوالت بعده الكتب النقدية الأولى مثل المواهب الفتحية لحمزة فتح الله (1892)، ومنهل الوراد في علم الانتقاد لقسطاكي الحمصي (1907). ص 243

ويلاحظ أن هذه الإصدارات واكبت إحياء التراث الأدبي الذي كان يغذيها ويهيئ لها مجال التأثير والانتشار، فالوسيلة الأدبية مثلا ظهر في المرحلة التي نشرت فيها كتب الموازنة بين الطائيين للآمدي (1867) والمثل السائر لابن الأثير (1862) والعقد الفريد لابن عبد ربه (1875)، كما نهض بعض الأدباء بوضع مختارات أدبية بين أيدي الطلاب مثل روضة الأدب في طبقات شعراء العرب ومجاني الأدب وحدائق المنثور والمنظوم وفحول البلاغة ومختارات البارودي. ص243